حركات تحرير او ثورات عدة، بدءاً بالعصيان المدني، وانتهاء بحرب القوات النظامية، ومروراً بقتال العصابات والاغارات، والارهاب الثوري، والضربات في المدن، فسنجد ان الانتفاضة الفلسطينية تنزل منزلة خاصة بها في سلّم أساليب العمل الثوري التحرّري. فقد أخذت من العصيان المدني شعبيته وشموليته، ومن العصابات مرونتها وحركيتها، ومن قتال المدن القدرة على إثارة العدو وجذبه والتملّص من قبضته والاختفاء السريع، ومن المقاومة السلمية عنادها واصرارها وابداعها في الاكتفاء الذاتي والقدرة على الديمومة.

مقاومة شعبية غير مسلّحة

ان الطابع الذي تميّزت به الانتفاضة حتى اليوم، يتجسّد في كونها حركة مقاومة شعبية غير مسلّحة. ويعني هذا ان محاولة تقويم أعمالها وآثارها ونتائجها على الصعيد العسكري تبدو متناقضة مع أهدافها وأطر عملها.

غير ان الطرف الآخر تجاه الانتفاضة، وهو القوة العسكرية المعادية، مارس عمله العسكري في اطار ما سمحت به الانتفاضة من فعل عسكري. وفي هذه الجدلية، بين اللاعنف الفلسطيني والعنف الاسرائيلي، يكمن سبب تقويم الانتفاضة على الصعيد العسكري.

وأول ما نلاحظه هو ان الانتفاضة لم تهدف الى تحميل العدو خسائر بشرية، بقدر ما هدفت الى تفكيك آلة الاحتلال وأجهزة القهر، واستنزاف قوات العدو الى حدّ الانهاك، وكشف القناع عن جوهره العنصري الوحشي قبالة الرأي العام العالمي، وانزال الخسائر في اقتصاده، وحرمانه من سرقة خيرات الارض المحتلة وثرواتها ومياهها، واستغلال اليد العاملة الفلسطينية.

وبذلك استطاعت الانتفاضة، في عمرها الفتيّ هذا، ان تقلب بعض المعطيات العسكرية والسياسية والدبلوماسية والاعلامية للقضية الفلسطينية، حين أعادتها الى دائرتها الأصلية، وهي دائرة الشعب الفلسطيني. وما لم تستطعه حروب وصراعات مسلّحة دامت أربعين عاماً، حققته الانتفاضة. فبعد عام من عمرها، كان اعتراف العالم كله بالوجود الوطني الفلسطيني وبحق الشعب الفلسطيني في اقامة دولته أبرز مكسبين من مكاسب الانتفاضة.

ومن معاناة النضال، وعلى لهيب الصدام اليومي، أفرزت الانتفاضة قيادات نضالية شابة جديدة، استطاعت ادارة الحركة الشعبية وضبط مناشطها وتحركاتها وفق مفاهيم وأهداف محددة، وغدت قادرة على ادارة عمليات منسّقة ومنظمة ومرتبطة بعضها ببعض عبر أرجاء الارض المحتلة كافة.

واذا كانت هذه القيادات نوّعت وأكثرت من سبل الاكتفاء الذاتي في مختلف مجالات الحياة اليومية، الغذائية والاقتصادية والاجتماعية، فان المكسب النضالي السياسي الهامّ الذي احرزته، يتمثّل في تنمية، وتعبئة، الوعي الوطني الفلسطيني، وشحن زخم النضال الدؤوب، ورفعه الى درجة التضحية والاستشهاد. وغدت الانتفاضة حالة ذهنية ايمانية، بقدر ما هي مجسّدة في رمي الحجارة. وازاء هذه الحالة الذهنية المتجذّرة، أثبت السلاح الاسرائيلي عجزه وفشله. وهو ما دفع بعض القادة العسكريين والسياسيين الى المناداة بأن لا حل عسكرياً للانتفاضة. وذهب بعضهم الى المطالبة بتغيير أسلوب المواجهة الذي يستعمله الجيش الاسرائيلي حتى الآن، وذلك برفع درجة العنف واستعمال أسلحة جديدة، وجعل ردة الفعل العسكرية جماعية على نطاق جدّ واسع، كما هي الانتفاضة جماعية واسعة! في حين ذهب البعض الآخر الى القيام بتنازلات، عبّر عنها مركز الدراسات الاستراتيجية